الإمـام البقاعي "حياته وآثاره العلميـــة"

إعـــداد
د. شيماء شرقاوي

الملخص:

جاء هذا البحث بعنوان الإمام البقاعي حياته وآثاره العلمية، وهدفت فيه إلى توضيح ملامح عن الإمام البقاعي_ رحمه الله_ من حيث نسبه ومولده ومذهبه العقدي والفقهي ، وحياته الشخصية وآثاره العلميــة و رحلاته في طلب العلم ومصنفاته المتنوعة، وصداماته بين كبار علماء عصرهبسبب توليه حملة تكفير ابن العربي ،ونتيجة ذلك تعرض صاحبنا لهجوم عنيف من الصوفية و أنصار ابن الفارض، في عصر كان للتصوف فيه حكم السيادة والريادة على الملوك والعوام.

ومنـهج الدراسة في هذا البحث المنهج الاستقرائي حيث تتبعت كتب التراجم والتاريخ لمعرفة سيرة البقاعي ومؤلفاته المتميزة.

وخلصت الدراسة إلى أن: البقاعي رحمه الله عاش في فترة عصر المماليك الجركسية، والتي كانت زاخرة بالنهضة العلمية وهذا بدوره أثر في شخصية البقاعي وحياته العلمي، .فحياة البقاعي مليئة بالأحداث المتتابعة من حروب ورحلات علمية أفنى حياته في تأليف الكتب في شتى العلوم المختلفة بين اللغة و التفسير والتاريخ والسيرة النبوية وفي علمي الحساب والمساحة، فهو بدوره خلف لنا آثاراً علمية عظيمة، وكذلك صراعه مع الصوفية وتباين الآراء معه بين مؤيد ومعارض ، والحكم على شخصيته وكتبه واختلاف أقوال العلماء فيه .

Summary:

This research was titled “Imam Al-Biqa’i: His Life and Scientific Effects” and aimed at clarifying the features of Al-Imam Al-Biqa’i in terms of his lineage, birth, doctrinal and jurisprudential doctrine, his personal life, his scientific effects, his travels in seeking knowledge and his various works, and his clashes between the great scholars of his time because of his assumption of the campaign of takfir Ibn al-Arabi As a result, our friend was subjected to a violent attack from Sufism and the supporters of Ibn Al-Farid, in an era in which Sufism had the rule of sovereignty and leadership over kings and commoners.

The methodology of the study in this research is the inductive method, as it traced the books of biographies and history to know the biography of Al-Buqai and his distinguished writings.

المقدمـة:

إن الاشتغال بنشر أخبار فضلاء العصر – ولو بتواريخهم – من علامات سعادة الدنيا والآخرة؛ إذ هم شهود الله في أرضه([1]) ، "ولا شك أن الاهتمام بسير العلماء فيه خيرٌ كثير للشبيبة المؤمنة؛ ليجدوا في حياة العلماء خير قدوة وأسوة بعد نبينا الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا خُلق عظيم اهتمَّ به العلماء جيلًا بعد جيل، فكان لأُمتنا المسلمة دون غيرها من الأمم هذا الكم الهائل من كتب التراجم التي تُعد دليلًا على غناها بالعلماء، ممن لهم مواقف مشهودة في الدفاع عن دين الله"([2]).

وفي زماننا هذا انتشرت الفتن وكثرت الصراعات فكان لزاماً علينا التبحر في كتب التاريخ والتراجم لنستخرج الفضلاء والنبلاء للسير على منهاجهم والتعرف على علومهم وجهودهم ، ونقتدي بهم ، وأخيرا نزول الرحمات عليهم.

وفي هذا الإطار وقع جُلَ اهتمامنا بدراسة نشأة الإمام البقاعي ورحلاته في طلب العلم، والتعرف على آثاره العلميـة التي خلفها لأمتنا العربية والإسلامية، وبما أن إمامنا البقاعي _ رحمه الله_ كان ملماً ومتبحراً بعلوم مختلفة فكان هذا واضحاً في مصنفاته المتعددة والمتنوعة فمؤلفاته تشمل علوم اللغة والشعر والحساب وأصول الفقه والتفسير وممن كان له مواقف مشهودة في الدفاع عن دين الله بما يخدم الأمة الإسلامية.

أهمية الموضوع:

- إبراز مكانة وشخصية الإمام البقاعي رحمه الله .
- الآثار العلمية التي خلفها الإمام البقاعي لخدمة الإسلام.

([1]) فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر؛ تأليف مصطفى بن فتح الله الحمودي، دار النوادر، دمشق، ط١، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، ص٣٦.

([2])لعلامة موسى لاشين حياته وجهوده في خدمة الإسلام، إعداد الشيخ: أحمد مصطفى فضلية؛ تقديم د. عبدالستار فتح الله سعيد، ط دار القدس – ١٤٢٩هـ –٢٠٠٩م، ص٢٩.

– موقف الإمام البقاعي ضد أقوال الصوفية ومعتقداتهم يكمن في حرصه على الدفاع عن دين الله.

أسباب اختيار الموضوع

الإمام البقاعي رحمه الله، ممن يُشهد له ببراعة الفكر والحكمة فقد أخذ العلم من علماء عظماء جهابذه، وخلف لنا آثارًا علمية عظيمة في شتى العلوم الدينية كالعقيدة والفقه واللغة .

الدراسات السابقة:

تعددت التراجم عن امامنا البقاعي رحمه الله ، ولهذا تباينت أقوال العلماء فيه فكان لا بد إلى التدقيق لاستنتاج الصحيح منها.

يشتمل هذا البحث على مبحثين :

المبحث الأول: التعريف بالإمام البقاعي رحمه الله . ويشتمل على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومذهبه العقدي الفقهي.

المطلب الثاني: حياته الشخصية

المطلب الثالث: وفاته ورثائه.

المبحث الثاني : آثار البقاعي رحمه الله العلميـــــة، ويشتمل على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: رحلاته في طلب العلم

المطلب الثاني: مصنفاته.

المطلب الثالث: أقوال العلماء فيه.

المبحث الأول: التعريف بالإمام البقاعي

المطلب الأول: نسبه ومولده ومذهبه العقدي والفقهي.

اسمه: ﴿إبْرَاهِيم بن عمر بن حسن الرُبَاط _بِضَم الرَّاء بعْدهَا مُوَحدَة خَفِيفَة_ ابْن عَليّ بن أبي بكر برهَان الدّين السعدي الوقاصي البقاعي([٣]).

فالرُباط لقب جده حسن ، الذي شُبه بالحبل الكبير ، هو في الأصل بكسر الراء ، ولكن ضُمتبسبب لحن العوام.

كنيته: وكنى نَفسه أَبَا الْحسن الخرباوي البقاعي، فالخرباوي نسبة إلى قرية(خربة روحا) من عمل البقاع في سوريا([٤])، ولكن أصبحت هذه القرية في لبنان حاليا بعد تقسيم الاستعمار دولة الشام إلى دويلات.

لقبه: برهان الدين ، وَيُقَال أَنه يلقب ابْن عويجان تَصْغِير أَعْوَج([٥]).

([٣]) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، دار مكتبة الحياة – بيروت، ج١ ، ص١٠١، النكت الوفية بما في شرح الألفية: برهان الدين البقاعي: تحقيق/ ماهر ياسين الفحل، مكتبة الرشد ناشرون ، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١ ، ص٩. نظم العقيان في أعين الأعيان: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، حرره: فيليب حتّي ، الناشر: المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك – لصاحبها سلُّوم مكرزل ، الطبعة: ١٩٢٨ م، المكتبة العلمية – بيروت، ص٢٤. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ج١ ، ص٧١. معجم الشيوخ: عمر بن فهد ، ص٣٣٦

الوقاصي : يقال أنه يرجع نسبه إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي اله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران: برهان الدين البقاعي، ج٢ ، ص٦١

([٤]) النكت الوفية بما في شرح الألفية: ج١ ، ص٩. الضوء اللامع: ج١ ، ص١٠١٠

البقاع: جمع بقعة موضع يقال لَهَا: بقاع كلب، قريب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فِيهَا قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة، وأكثر شرب هذه الضياع يخرج من جبل. يقال لهذه العين عين الجرّ، ويقال بهذه البقاع قبر إلياس عليه السلام.

انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: صفيّ الدين بن عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، ج١ ، ص٢١١.

أما (خربة روحا) هي إحدى قرى سهل البقاع، ويجوز في (خَرَبة) فتح الخاء مع فتح الراء وتسكينها، كما يجوز ضم الخاء مع تسكين الراء. انظر: مراصد الاطلاع: ج١ ، ص٤٥٧. وأما (روحا) فبفتح الراء وتسكين الواو، وحاء مهملة ممدودة في أخرها همز . انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب_ بيروت_ الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ، ج٢ ، ص٦٨١.

مولده : ذكر البقاعي ولادته بقوله :"فِي ليلة الأحد تاسع شعبان سنة إحدى وعشرين وثمان مئة أوقع ناس من قريتنا (خربة روحا) من البقاع من أعمال دمشق من جملة الأراضي المقدسة ولله الحمد ، ويقال لَهُم: بنو مزاحم بأقاربي بني الحسن من القرية المذكورة فقتلوا تسعة أنفس ... وضُربتُ أنا بالسيف ثلاث ضربات، إحداها فِي رأسي فجرحتني وكنت إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة"([٦]).

وذكر مولده في "نظم كتبه على استدعاء طلبهُ منه تلامذةُ له ليجيزهم برواية كتبه ومروياته فقال: أجزتهم مطلوبهم ومولدي تاسع قرن تاسع في الجبل وخط إبراهيم نجل عمر بن الرباط حسن نجل علي ابن أبي بكر البقاعي الشافعي الله يعفو ما لهم من زلل([٧]).

وبهذا تكون سنة ولادته (٨٠٩هـ)، لأن هذه الواقعة كانت سنة ٨٢١هـ وعمره آنذاك اثني عشر عاماً.

واستنادا إلى ما سبق فإن البقاعي عاصر الدولة المملوكية الجركسية، "ويعد عصر دولة المماليك فترة مهمة من تاريخ العالم الإسلامي، تلك الدولة التي استطاعت أن تمتد نفوذها من بلاد مصر إلى بلاد الشام ، وحتى الحجاز واليمن في الجنوب، حكمت أكثر من قرنين ونصف من عمر العرب والمسلمين في مرحلة مضطربة ومليئة بالأحداث الجسمية([٨])".

فقد امتحن الله أهل تلك الديار بقضاه من المالكية يتجرون على سفك الدماء بما لا يحل به أدنى تعزير فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم جهالة وضلالة وجرأة على الله ومخالفة

([٥]) الضوء اللامع: ج١ ، ص١٠١

([٦]) النكت الوفية: ج١ ، ص٩ ، شذرات الذهب: ج٩ ، ص٥٠٩.

([٧]) عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران: برهان الدين البقاعي، ج٢ ، ص٦٢ . برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم : عبدالله بن عبدالرحمن الخطيب: المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية) _المجلد السادس – العدد الثاني، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م ، ص٧ .

([٨]) موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) : د/مفيد الزيدي، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن_ عمان ، ٢٠٠٩، ص٣

لشريعة رسول الله وتلاعبا بدينه بمجرد نصوص فقهية واستنباطات فرعية ليس عليها اثارة من علم فإنا لله وإنا إليه راجعون([٩]).

وتأثرت شخصية البقاعي بهذه الاضطرابات مما جعلته ذو شخصية تتميز بالشجاعة والإقدام، فبسبب هذه الحروب والوقائع اكسبته طابع الجرأة والشجاعة في مواجهة الأفكار المعادية للإسلام، حيث اتسم البقاعي بالرد على شبهات النصارى واليهود عن طريق سرد نصوصهم المتباينة وإضعاف بصائرهم، كما ألف كتاباً للرد على المتصوفة_ كما سنذكر آنفاً_ ، ومن ناحية أخرى بسبب هذه الغزوات جعلته كثير الترحال والتنقل منذ الصغر ، ومن خلالها قابل العديد من العلماء فتلقى منهم ، وتوسعت بذلك معارفه وعلومه.

مذهبه العقدي والفقهيّ: كان البقاعيّ في باب العقيدة على منهاج الأشاعرة، وفي فقه الشريعة على منهاج الإمام الشافعيّ – رضي الله عنه–([١٠]).

وعلى الرغم من تمسكه بمذهبه الشافعي إلا أنه كان ملماُ بالمذاهب الفقهية المختلفة مما يجعله فقهياً متمكناً ومتسع البصيرة في الرد بجميع الاختلافات، حيث إن الاختلافات في الأصل أساسها اختلاف في منهاج النظر في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن ناحية أخرى الاختلاف في حياة القوم، بما يتناسب مع زمانهم ومكانهم.

المطلب الثاني: حيـــــــاته الشخصية

البقاعي هو صاحب العجائب والنوائب والقلاقل، والمسائل المتناقضة المتعارضة([١١])، ممن صنف، وانتقى، وحدث، ودرس، وشارك في الجملة، وأنه قيم العصريين بكتاب الله وسنة رسوله ، ولكن أهلكه التيه، وحب الشرف والسمعة([١٢]).

([٩]) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م

([١٠]) ولم يكتف بذلك بل درس المذهب المالكي على شيخه "المشدالى "بالأزهر الشريف، ودرس "الموطأ "على شيخه محمد بن على الصفوي" بالقاهرة سنة سبع وثلاثين وثمان مئة . الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن: محمود توفيق محمد سعد، ص١٣. وسيذكر تعريفهما في مبحث شيوخ البقاعي.

تعرض امامنا البقاعي لكثير من الأذى والسب وظل يواجه الشدائد، "ويناهد العظائم فقد تنكر له الناس وبالغوا في أذاه، وقد بلغ جماعة من أهل العلم في التعرض له بكل ما يكره إلى حد التكفير حتى رتبوا عليه دعوى عندالقاضي المالكي، وقد رام الحكم المالكي بكفره وإراقة دمه بعد أن سأله أن يفصل في تفسيره بين كلام الله وبين تفسيره بقوله (أي) أو (نحوها) لعله يتوهم([١٣])، مما جعله يسرد مقالة يوضح فيها مبتغاه بهذا التفسير وتوضيح ما أُشكل عليهم.

وقد نال منه علماء عصره بسبب تفسيره حيث أنكروا عليه النقل من التوراة والإنجيل وترسلوا عليه وأغروا به الرؤساء ، وله رسالة يجيب بها عنهم وينقل الأدلة على جواز النقل من الكتابين وفيها ما يشفي([١٤]).

ووقع بين البقاعي و كبار علماء عصره صدامات عنيفة بسبب توليه حملة تكفير ابن العربي وتأليفه لكتابي (تنبيه الغبي في تكفير ابن عربي) وكتاب (تحذير العباد من أهل العناد)، ونتيجة ذلك تعرض صاحبنا لهجوم عنيف من الصوفية و أنصار ابن الفارض، في عصر كان للتصوف فيه حكم السيادة والريادة على الملوك والعوام.

ومن ضمن مقولاته لتكفير ابن عربي وتواتر الخبر بتكفير العلماء له قائلاً:" هذا مستندنا، وهو قطعي من جميع وجوهه، تواتر لنا تواتراً معنويا نسبة العلماء له إلى الكفر، وتواتراً حقيقياً أن التائية نظمه، ونحن على القطع بأنها صريحة في القول بالاتحاد بالذات والصفات، وما يتبع ذلك من تصويب جميع الملل والنحل إن لم يكن نصا فيه، وعلى القطع بأن ذلك كفر، والقائل به كافر، وقد انتقيت من التائية ما يقارب أربعمائة وخمسين بيتا شهد شراحها البررة والكفرة أن مراده منها صريح الاتحاد، وما تفرع عليه من تصويب جميع الأباطيل في مجلد سميته الفارض، فإن الخوارق ربما كانت لكفره امتحاناً من الله لعباده، وينبغي لكل مسلم أن يجعل

([١١]) الضوء اللامع : ج١ ، ص١٠١.

([١٢]) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة : مجموعة من المؤلفين، الناشر: مجلة الحكمة، مانشستر – بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ج١ ، ص٦٥.

([١٣]) البدر الطالع : ج١ ، ص٢١. التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، ص٣٥١

([١٤]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢١

قصة الدجال نصب عينيه، فإنه يظهر على يديه من الخوارق شيء كثير مع علمنا بأنه أكفر الكفرة"([١٥]).

وفي المقابل كان للبقاعي ردوداً قوية في وجه من يخالفه الرأي فكان يناظر وينتقد حتى شيوخه حيث قال عن قاسم الحنفي([١٦]):" كان كذابا لا يتوقف في شيء يقوله ولا يعتمد على ما يقول ما أقل إنصافه! وما أشد جرأته على شيوخه وأساتذته! ما هذا إلا بهتان عظيم، وإفك مفترى"([١٧]).وهذا بسبب اظهاره التعصب والمناضلة للصوفية في فتنة ابن الفارض.

وأطلق البقاعي لسانه على " القاضي ناصر الدين محمد بن محمد بن عبدالله الزفتاوي الشافعي أحد النواب بالديار المصرية ، وصنف فيه جزءاً أسماه "أشلاء الباز على ابن الخباز" وما علمت وصفه بابن الخباز لماذا؟!"([١٨]).وذكر أنه :ندم على ما فعل، فقرأ عليه، وصيره من شيوخه([١٩]).

ورد كذلك على شيخه الإمام الغزالي بقوله:" وإياك أن تلتفت إلى من قال :إنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم؛ فإنه مذهب فلسفي خبيث، والآية نص في إبطاله، وإن نسبه بعض الملحدين إلى "الغزالي "فإني لا أشك في أنه مدسوس عليه!!! ، فإنه مذهب فلسفي خبيث بشهادة "الغزالي "كما بينت في كتابي " :تهديم الأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان "وكتابي " :دلالة البرهان على أن في الإمكان أبدع مما كان "وكتابي " :إطباق الأغلال في أعناق الضلال " الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه نصوصه وغير ذلك من

([١٥]) مصرع التصوف: تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإتحاد: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، المحقق: عبدالرحمن الوكيل، الناشر: عباس أحمد الباز – مكة المكرمة، ج٢ ، ص٢٥٧.

([١٦]) اللغوي، المفسر :قاسم بن قطلوبغا زين الدين السودوني، المعروف بقاسم الحنفي. ولد :سنة (٨٠٢هـ) اثنتين وثمانمائة. إمام علامة، طلق اللسان، قادر على المناظرة، مغرم بالانتقاد ولو لمشايخه، •عرف الشيخ قاسم بقوة الحافظة والذكاء المتوقد، فاعترف علماء عصره بعبقريته، وأشير له بالعلم وأذن له مشايخه بالإفتاء والتدريس، الإعلام : الزركلي ، ج٢، ص٨٤٨

([١٧]) الضوء اللامع: ج٦ ، ص١٨٦

([١٨]) إنباء الهصر في أبناء العصر: علي بن داود الجوهري الصرفي ، تحقيق/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص٣٤٩.

([١٩]) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : ج١ ، ص٨١.

كتبه واستند فيه في بعضها إلى الغزالي إتقانا لمكره – أعاذنا الله من شره، والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الإحياء وغيره }قَدِيرٌ {أي بالغ القدرة([٢٠]).

المطلب الثالث: وفاتـــــه ورثائه

توفاه الله قبيل رحلته إلى دمشق بعد أن تفتت كبده كما قيل في ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة ٨٨٥ خمس وثمانين وثمان مائة ودفن خارج دمشق من جهة قبر عاتكة ([٢١]).

وبهذا فإن حياته دامت ستة وسبعون سنة حياة حافلة بالترحال وطلب العلم مليئة بالإنجازات العلمية والمواقف البطولية، و ثرية بالصراعات العنيفة تكمن في صراعات سياسية وأخرى دينية ، يتخللها الكثير من المواجهات بالقلم واللسان سجلت في كتب التاريخ، فقد تصدى لإخوان الباطل ونشرهم لفكرة الإلحاد، والقول بوحدة الوجود والترويح لمقالات الصوفية .

ويرثي البقاعي نفسه في حياته من شعره الوارد في البدر الطالع بقوله

نعم إنني عما قريب لميت ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وفي آخر القصيدة يقول:

وإلا نعاني كل خلق ترفعت ... به هممي عن شائن وبكاني([٢٢])

المبحث الثاني: آثار البقـــــاعي رحمه الله العلميـة

المطلب الأول: رحـــــــــلاتـه في طلب العلم.

([٢٠]) نظم الدرر: ج٢٠، ص١٧٨

ورد على الغزالي في موضع آخر بقوله :" فإياك أن تصغي لما وقع في كتب الإمام الغزالي أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وإن كان قد علم أنه اعترض عليه في ذلك وأجاب عنه في الكتاب الذي أجاب فيه عن أشياء اعترض عليه فيها فإنه لا عبرة بذلك، فإن ذلك ينحل إلى أنه سبحانه وتعالى لا يقدر على أن يخلق أحسن من هذا العالم، وهذا لا يقوله أحد، وهو لا ينقص مقدار الغزالي فإن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد " .نظم الدرر: ج٢، ص١٠٨

([٢١]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢١، وانظر: الضوء اللامع : ج١ ، ص١٠٧، شذرات الذهب: ج٧ ، ص٣٤١

([٢٢]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢١-٢٢

بعد سرد البقاعي لذكرى يوم مولده يستأنف حديثه موضحاً بداية رحلته في طلب العلم قائلاً: "فخرجنا من القرية المذكورة – خربة روحا – واستمرينا نتنقل فِي قرى وادي التيم([٢٣])، والعرقوب([٢٤])، وغيرهما إِلىَ أن أراد الله تَعَالَى بإقبال السعادتين الدنيوية والأخروية فنقلني جدي إِلىَ دمشق، فجوّدت القرآن، وجدّدت حفظه، وأفردت القراءات ، وجمعتها على بعض المشايخ، ثم على الشّمس ابن الجزري لما قدم إلى دمشق سنة سبع وعشرين وثمانمائة، واشتغلت بالنحو، والفقه، وغيرهما من العلوم، وكان ما أراد الله تعالى، من التنقّل في البلاد والفوز بالغزو والحجّ– أدام الله نعمه آمين"([٢٥]).

وبعد البحث في العديد من المراجع توصلنا إلى جملة من تنقلاته وطوافه في البلاد لطلب العلم ففي بدايته "نَشَأَ في قرية (خربا روحا) حيث حفظ بها القرآن على يد المقرئ أبي الجود محمد بن إسرائيل ، ثمَّ تحول إِلَى دمشق وأتقن التجويد على يد شيخ القراء بالشام شرف الدين صدقة بن سلامة بن حسين الضرير المسحراتي ثمَّ تاقت نفسه إلى الاشتغال بالعلم سنة ست وعشرون فلازم تاج الدين محمد بن بهادر فبحث في الفقه والنحو والتصريف والأصول الفقهية والمعاني والبيان والمنطق، وأخذ التصوف عن الشيخ عبدالله بن خليل القلعي، والقراءات عن العلامة شمس الدين بن الجزري ودرس منظومته (الطيبة) في القراءات العشر أفرادا وجمعاً، وأخذ الفقه عن القاضي تقي الدين بن قاضي شهبه، وبحث في المنطق على الشيخ بدر الدين حسين الهندي،

([٢٣]) لم يذكر ياقوت وادي التيم في معجمه بل ذكر يبوس وقال أنها اسم جبل بالشام بوادي التيم من دمشق وجبل يبوس منه الآن قرية كفر يبوس وهو المعروف بوادي الحرير ووادي القرن وإلى هنا كان يتصل عمل وادي التيم وكان هذا الوادي في القرن الثامن من معاملة كرك نوح بالبقاع وله إقليم مع ما يضاف إلى الوادي المذكور ثلاثمائة وستون قرية تعد من عمل دمشق. مجلة المقتبس: محمد عبدالرازق محمد كُرد علي ، العدد ٦٥، ص٣٧

([٢٤]) العُرْقُوبُ مَا انْحَنَى مِن الوَادِي والْتَوى شَدِيداً . وقال الفراء :يقال ما أكثر عراقيب هذا الجبل، وهي الطُرق الضيِّقة في مَتْنِهِ. وتَعرقبتُ، إذا أخذتَ في تلك الطرق .تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية ، ٢٠٠١م، ج٣ ، ص٣٥٧، كلمة عرقب. الصحاح في اللغة والعلوم: تجدي لصحاح العلامة الجوهري ، تحقيق/ نديم مرعشلي، ص٣٣٥٤ ((المطبوع هو (انتخاب) من صحاح الجوهري، وأيضا من المعجم الوسيط والكبير والموسوعة الميسرة ومعاجم الشهابي وغيرها))

([٢٥]) شذرات الذهب : ج٩ ، ص٥٠٩ / النكت الوفية: ج١ ، ص١٠.

ثم فَارقهَا وَدخل بَيت المقَدّس وسمع بها ودرس على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام المقدسي ولازم مجموعة من علماء عصره ودرس على يديهم وحفظ منظومتي ابن الهائم في الجبر والحساب ، ودرس الفرائض والأصول والفقه والنحو والحديث وهنا بدأ في عمل منظومته في علمي الحساب والجبر التي اسماها (الباحة) ، وكان سنه آنذاك ثمانية عشر عاماً، وانتفع بالعلامة تاج الدين الغرابيلي كثيراً وعليه تخرج، وعلى هذا تكون بداية رحلة صاحبنا العلمية والاستزادة بالمعارف المختلفة كانت من الصغر حتى غدت حياته حافلة بالكثير من العلم والمعرفة، ولا سيما في سنوات الحروب والوقائع المختلفة "فإنها استمرت أكثر من ثلاثين سنة، ولعلها زادت على مئة وقعة، كان فيها ما قاربت القتلى فيه ألفاً"([٢٦]).

ويخبرنا صاحب شذرات الذهب فيما يتحدث به البقاعي عن نفسه قائلاً : " كان ما أراد الله تعالى من التنقل في البلاد والفوز بالغزو والحج- أدام الله نعمه-. ومن ثمرات ذلك أيضا الإراحة من الحروب والوقائع التي أعقبتها هذه الواقعة، فإنها استمرت أكثر من ثلاثين سنة، ولعلها زادت على مئة وقعة، كان فيها ما قاربت القتلى فيه ألفا. انتهى بحروفه."([٢٧]).

وتولى امامنا جملة من الوظائف حيث :"عُين فِي حَيَاة الظَّاهِر جقمق([٢٨])لقِرَاءَة الحَدِيث بالقلعة ثمَّ مَنعه الظَّاهِر فِي حَيَاته وَأدْخلهُ حبس أولى الجرائم"([٢٩]).

وتولى وظيفة "معيد "بمسجد رحبة باب العيد([٣٠]). وعين معيداً كذلك بمسجد "الظاهر "وهي وظيفة يقوم صاحبها بتفهيم بعض الطلاب ما لم يستطيعوا فهمه من الشيخ، فيعيد الدرس عليهم بشيء من التوضيح"([٣١]).

([٢٦]) شذرات الذهب: ج٩، ص٥٠٩.

([٢٧]) شذرات الذهب: ج٩ ، ص٥٠٩-٥١٠

([٢٨]) الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد محمد جقمق العلاي الظاهري : دام حكمه من سنة(٨٤٢هـ) -(٨٥٧هـ) ، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العاشر من ملوك الجراكسة ، وكان محباً للعلم كريماً معظماً للعلماء، وقد حدثت في عصره معارك شديدة مع (قرقماس الشعباني) وكذلك نائب الشام وعدد من العبيد، حيث تجمعوا وسلطنوا عليهم واحداً منهم، فانتصر عليهم (جقمق) وساقهم إلى أسواق الروم فباعهم. بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ج٢ ، ص١٩٨- ٢٣٠

([٢٩]) الضوء اللامع: ج١، ص٢٠١.

المطلب الثاني : مصنفاته

خلف البقاعي الكثير من المصنفات المتنوعة مما يطول الحديث عنها، والتي تضم شتى العلوم في التفسير والأدب والتاريخ والحديث ، فقد ألف في كل علم وفن ، حيث وصفه أقرانه بأنه: "برع في جميع العلوم وفاق الأقران ، وبلغ رتبة العلماء، ويجدر إدراجه بين الفضلاء ، وأن علمه أتقن فناً ، وتصانيفه شاهدة"([٣٢])، حيث ترك لنا ثروة علمية هائلة تشهد بعلو مكانته ، وترفع من همته، ومنها:

١- **تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد.** وهو كتاب تحذير من البدع ومعتقدات الصوفية ، والكتاب أصله مصرع التصوف.

٢- **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي.** كتاب يتحدث فيه عن عقيدة ابن عربي وكيده للإسلام ، ومنهاج الصوفية في الكيد بدعوتهم ، وايمانه بأن الله إنسان كبير ، وزعمه أن الحق مفتقر إلى الخلق، وتكفير الصوفية لنوح عليه السلام، ويذكر البقاعي شواهد من التائية التي نظمها ابن الفارض ويرد عليها بدلائل القرآن والسنة لتوضيح سقامة أقواله.

٣- **سرالروح** . صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م بعناية الشيخ محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، وقد اعتمد فيها على نسخة عليها خط المؤلف محفوظة في رواق الأتراك بالجامع الأزهر([٣٣])، وهو اختصار لكتاب الروح لابن قيم الجوزية ، المتوفي سنة ٧٥١هـ([٣٤]).

٤- **عنوان الزمان بتراجم** . يعتبر هذا الكتاب معجم تراجم ، فإن التراجم الواردة فيه تتعلق كلها برجال ونساء عاشوا في القرن التاسع الهجري في مصر والشام والعراق والسودان

([٣٠]) وهي رحبة واسعة كانت أمام الباب الشرقي للقصر الفاطمي الكبير الذي أنشأه "جوهر الصقلى "للمعز الفاطمي، وهي الآن متفرعة من شارع قصر الشوق بالغورية بالأزهر، وما يزال شارع "رحبة باب العيد " قائما عامرا . الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل البلاغة : محمود توفيق محمد سعد ، ص١٧

([٣١]) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل البلاغة : محمود توفيق محمد سعد ، ص١٧

([٣٢]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢٠.

([٣٣])فهرست مصنفات البقاعي: ص٧٢.

([٣٤]) كشف الظنون: ج٢ ، ص١٤٢١.

والهند وبلاد الروم وأفريقيا ، فكان يترجم لهم من حيث النشأة والمولد والدراسة وآثارهم الفكرية وأوجه نشاطهم ، ويعدد ما طبعوا عليه ، وما يقوله الناس عنهم ، وينقل بعض عناوين ما أُلفوا([٣٥]).

٥- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور.** يقول عنه البقاعي : "اصطنعته وغيره من مصنفاتي، واخترعته وما سواه من مبتدعاتي، رغبة فيما ندب الله سبحانه إليه من قوله تعالى : ﭐﱡﭐ ﮪ ﮯ ﮰ ﮱ ﭐﱠﭐ[الفرقان: ٧٤]وحث عليه رسوله يسمى" :المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى في عدة نشر العلم، فيما يدوم ثوابه، فيسعد به أصحابه"([٣٦]).

٦- **نظم الدرر في تناسب الآي والسور.** برع البقاعي في هذا الكتاب وجعله من أفضل التفاسير، حيث أجمع فيه مختلف العلوم والأصول وكان من أول صنف في البحث الدلالي والمناسبات بين الآي والسور، ويسمى أيضا الجواهر والدرر في تناسب الآيات والسور، وقال عنه الشوكاني:" ومن أمعن النظر في كتاب المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علمي المعقول والمنقول ، وكثيرا ما يشكل عليّ شيء في الكتاب العزيز فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي وأرجع إلى هذا الكتاب فأجد ما يفيد في الغالب"([٣٧]).

المطلب الثالث : أقوال العلماء فيه:

([٣٥]) يقول البقاعي: "فهذه تراجم شيوخي الذي أخذت عنهم فنون العلم تطلاباً، ورتبت على حروف المعجم أسمائهم وأسماء آباءهم وإن علو أنسابا، وأشرت إلى ما لكل من منقول ومعقول بحسب اطلاعي احتساباً، أرجو بذلك يوم الجزاء ثواباً"

عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران : حققه وقدم له وعلق عليه حسن حبشي، وشارك في التحقيق: ايزيس زكا قرياقص_ ط١ ، القاهرة _ دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، ١٤٢٢هـ٢٠٠١م(رقم الإيداع بدار الكتب (٢٠٠١/١٦٩٣١). ج١ ، ص٣١.

([٣٦]) الكتاب: مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ: المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، ج١ ، ص٩٨

([٣٧]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢٠.

أولاً: مدح العلماء له: اعترف له معاصروه ومن جاء بعده بالعلم والفضل والتقدم.

قال الشوكاني –رحمه الله–: "إنه من الأئمة المتقين المتبحرين في جميع المعارف، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتصانيفه شاهدة"([٣٨]).

وذكر الشوكاني محاسن البقاعي التي وصف بها نفسه عندما قال: "لا يخرج عن الكتاب والسنة بل هو متطبع بطباع الصحابة([٣٩])، وهذه منقبة شريفة ومرتبة منيفة"([٤٠]).

ووصفه السيوطي–رغم خلافه العلمي معه –بأنه: "العلامة المحدث الحافظ، مهر وبرع في الفنون ودأب في الحديث ورحل، وله تصانيف حسنة"([٤١])

وقال فيه داود الأنطاكي([٤٢]): "وحيد زمانه ورئيس أقرانه وواحد عصره ونادرة دهره"([٤٣]).

([٣٨]) البدر الطالع : ج١ ، ص٢١

([٣٩]) التاريخ المعتبر من أنباء من عبر: مجير الدين العليمي ، إشراف: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١١ م، ج٢٣ ، ص٧٦.

([٤٠]) البدر الطالع: ج١ ، ص٢١

([٤١]) نظم العقيان في أعيان الأعيان: جلال الدين السيوطي، ص٢٤..

([٤٢]) داود بن عمر الأنطاكي :عالم بالطب والأدب. كان ضريرا، انتهت إليه رياسة الأطباء في زمانه، ولد في أنطاكية، وحفظ القرآن، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئا من الطبيعيات، ودرس اللغة اليونانية فأحكمها. وهاجر إلى القاهرة، فأقام مدة اشتهر بها، ورحل إلى مكة فأقام سنة توفي في آخرها. كان قوي البديهة يسال عن الشئ من الفنون فيملي على السائل الكراسة والكراستين. الأعلام: الزركلي، ج٢ ، ص٣٣٣.

([٤٣]) تزيين الأسواق في أخبار العشاق: المؤلف: داود بن عمر الأنطاكي، المعروف بالأكمه، ص٢